حوليات آداب عين شمس المجلد ٤٧ (عدد يناير – مارس ٢٠١٩)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

تمرحل النص وعقيدة التسامح
كتاب " جيفرسون والقرآن، الإسلام والآباء المؤسسون " نموذجا

إيمان محمّد عبد الهادي *

أستاذ مساعد في الأدب والنّقد الحديث- جامعة الزّيتونة الأردنيّة

المستخلص

كانَ خطابُ القرآن بالعالميّةِ، جوهراً قارّاً فيهِ بما هو كتاب، ومن منظورٍ انعكاسيّ، يسعى إلى التكميل، وسبرِ وجهاتِ النّظر المتعدّدةِ والمتشاكسة، آليتُ في هذا البحثِ التّاريخيِّ الثّقافيّ اللغويّ، استجلابَ واحدٍ من أقدمِ النّماذجِ في تقويضِ فكرةِ المغايرةِ النّديّة، نموذجاً اتّسعَ لاستيعابِ الآخر، متمثّلاً بدافعٍ لغويٍّ لاستقصاءِ ثقافةِ هذا اللسان. عبر نسخةٍ مترجمةٍ من القرآن، استلهمَ جيفرسون أشواقَهُ الحرّة، وأسئلتهُ الخصبة تجاه الإسلام، وإزاءَ المنظومةِ المفاهيميّةِ التي يجلّيها من خلالِ الفعل، أولئكَ الفرقاءُ الذي يمارسونَ تصوّراتِهم، ضمنَ ميكانيزماتٍ سلوكيّة.

حاولتُ من خلالِ الاتّكاءِ على منظورٍ ثقافيٍّ لغويّ في القرآن، أن أبحثَ في بذورِ الثّقافةِ التّقدّميّةِ العالميّة، محللة للجذورِ والبنى المؤسّسةِ في التّنوعِ وتقبّلِ الاختلاف، لم يكن ذلكَ استقراءً للتّحوّلاتِ في الماضي، بل بناءً للتّاريخ من وجهةِ نظرٍ قادِمة، ولم يكن ذلكَ مُتخيَّلاً إيديولوجيّاً، في محاولةٍ لفرضِ سياسةِ الدّمجِ والتّماهي للمسلمين والقرآن، في مجتمعٍ معرفيٍّ شموليّ، هو المجتمعُ الأمريكيّ، بل إنّ عالميّةَ القرآنِ وُضعت على محكِّ الاستقصاءِ، وأمام سؤالِ المرونةِ والعمق، وخاضَ المسلمُ أزمةَ الذّات، من خلالِ أمثلةٍ كثيرةٍ طرحتها دينيس سبيلبيرغ، من خلالِ تمثّلها لتجربةِ توماس جيفرسون، أحد الآباءِ المؤسّسين لأمريكا، في محاولةٍ لإعادةِ الصّلة بينَ الإنسانِ والعالم، من خلالِ القرآن الكريم.

تبدو قصّة الحرّيّة الدّينيّة التي يطرحها كتاب "توماس جيفرسون والقرآن: الإسلام والآباء المؤسّسون" قصّة ذاتَ تيّارٍ وعيٍ كبير، تستحوذُ أسئلتُها على الذّهن، من خلالِ مقارباتٍ عدّةٍ في الكتاب، وأسئلةٍ أكثرَ في الواقع فإن لم يكن المُستقبَلُ سَيِّد النّجاة، في الإجابةِ عمّا تقدّم، فلا أقلّ من الدّخولِ في امتحانِ التّاريخ وذاكرةِ الجماعة.

وما قامت بهِ سبيلبيرغ، أشبهُ بمقدّمةٍ تاريخيّة، تحفرُ في الصّورةِ الواثقةِ كالوتد، وتحاورُ ذلكَ الشّبحَ المتخيّل عن الأمّةِ المسلمةِ النّاشئة في أمريكا، وقد تجلّى حلّ المشكلاتِ المعقّدةِ، من خلالِ الاتّصالِ اللغويّ، وبتصديرِ هذهِ الثّقافة لضوابطها وشروطِها عبر سياقٍ مفاهيميّ تجلّى من خلالِ حدودِ النّصّ: القرآن الكريم إطاراً وجوهراً.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

"كلّ من ليسَ لهم حقوقٌ كاملة، هم أعداءٌ سرّيّون"
جيفرسون.

بمثابةِ مقدِّمة:السّر والجهر / الكِتابُ والمتلقّون:

كتاب **"جيفرسون[1] والقرآن، الإسلام والآباءُ المؤسّسون"** لمؤلّفتِهِ، **دينيس. أ. سبيلبيرغ[2]**، هو كتابٌيطرحُ أسئلة، إزاءَ إجاباتٍ مسبَّقة، وأخرى تحملُ خلافاً، وإذ أصادِقُ على فكرةِ جهريّة القرآن؛ بوصفِهِ (كتاباً)،فإنَّ الأصلُ في كلّ كتابٍ هي عالميّتهُ، إنّهُ خطابٌ لكلِّ من يستطيعُ القراءة، ورسالة على الاحتماليّةِ وعلى الشّمول حيثُ يقعُ من اليدِ أو القلب.

أمّا القرآن، فهو ليسَ كتاباً استثنائيّاً حسبُ لناحيةِ تفوّقِهِ واختلافِه، بل لناحيةِ أنّه ادّعى لنفسِهِ القدرةَ على الإحاطة.

فهو كتابُ مطلق: شكّلَ النّموذجَ البلاغيَّ الأعلى على مستوى اللغة، والنّموذجَ الفكريّ الأعلى على مستوى الفلسفةِ الإسلاميّة، والنّموذجَ اللاهوتيّ الأعلى على مستوى التّشريع والاعتقاد.

وتنطلقُ حتميّة العلاقةِ الضّديّة بين السّرّ والجهر لغويّاً، وتأخذ باتجاهِ محاولةِ الفهم: لعالميّةِ القرآن ومحليّةِ القرآنيين، وإن كانَ المسلمونَ الذينَ يدينونَ بالقرآن مصدراً للتشريع يعيشونَ حالة خوفٍ إزاءَ قيمةِ معتقداتهم خارجَهم، وإمكانيّةِ نشرِها في فضاءٍ شموليّ:(حالة من عدم الوعي العميق، وخلخلة في مفاهيم العقيدة التي جاءت لتحرر متبعيها من الخوف على رزقهم وأجلِهم؛ لئلا يخشونَ إلا الله).

إنّ حالة الطّباق/ التّشاكس –إن جاز التّعبير- تتضمنُ إمّا محاولة كلّية لفهم القرآن، مؤلّفة بين قطبيهِ: الباطنيّ الروحيّ الفردانيّ (السّرّي)، والخطابيّ الدّعويّ الجمعيّ (الجهريّ)، ما لم يتحقق وفق المشاريع الإسلاميّةِ المختلفةِ إلا جزئيّاً، أو أن تكونَ حالةُ المراوحةِ بينَ السّرّ والجهر، هي زاويةُ النّظر الرديكاليّة التي يتطلّعُ بها إلى الإسلام من هم خارجُ دائرتِهِ وحدودِه بوصفهما نقيضاً.

إنَّ الآية الكريمة "فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين"(القرآن الكريم، سورة الحجر:٩٤) تطلبُ إلى محمّدٍ -عليه الصّلاةُ والسّلام-أن يبدأ الجهر بدعوة أهله وعشيرته الأقربين"وأنذر عشِيرَتَك الأقربين"(القرآن الكريم، سورة الشعراء:٢١٤)

ويتجلّى الإيمان بوصفِهِ حالةَ استسراريّة، ما ينكشفُ منها تمظهراً على مسوح الذّات، كهويّةٍ فائقة، لا يني، أن يكونَ تلكَ القشرةَ الهشّة التي تغلّفُ الثمرة، إنّما تجعلُ منها ما هي عليهِ شكلاً ونسغاً ولمعاناً وحفظاً: إنّها ثمرةَ الإيمان السّخيّة التي لا تُقطفُ إلا حالَ يصلُ المؤمنُ إلى مآلاتِهِ بوصفِها الرّؤيوي.

لقد بدأت دعوةُ النّبوّةِ سرّاً:الإيمانُ يُخيفُ، لكنّهُ لا يخاف؛ كان باطنيّاً إحالة على الرّوح، وباطنيّاً إحالة على الصّفة: صفةِ الطّرح، وقدرةِ المواجهة؛ لعلّها مجابهةُ الأفكارِ التي تتأتّى من قدرتها على الانحيازِ لنفسها أوّلاً، ومن ثمّ التّفكير بوعي المناوئين، ولاحقاً التّأسيسُ على كلا النّظرتين تجاهَ الذّاتِ انطلاقاً منها، وارتداداً عن الآخرِ القصيّ إليها كذلك. ويتوالدُ عن صداميّة الإيمان بينَ جهريتهِ واستسراره: الإيمانُ الأقصوي، بوصفِهِ فكرةً مركّبة غير قابلةٍ للتّجزئة،ضمن مفهوم الاستعلاء "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون..." (القرآن الكريم، سورة آل عمران : ١٣٩)

وفي كتاب جيفرسون، يتوزّعُ تاريخُ أمريكا القديم بينَ أن يكونَ الإسلامُ فيهِ حالة قصوى ترهبُ المخالفينَ، وبينَ أن يكونَ فكرةً مبهرةً وخلّاقة، للرّائينَ إليهِ جماليّاً ضمنَ سياق التغيير، في أطُرِهِ جميعِها: فرديّاً، ومجتمعيّاً، وعالميّاً.

وقد كانَ جديراً بي التّحدثُ –كما جرتِ العادة- وفقَ مصطلح الاعتناق، عن اعتناق الإسلام ، لا عن اعتناق القرآن، لكن ماذا لو لم تكن الحضارةُ الإسلاميّةُ شيئاً إلا ذلكَ الكتابَ

الذي انطلقت منهُ تصوّراتُها ووقائعها، ليسَ بوصفِهِ كلاماً وإنّما كائناً حيّاً من لحمٍ ودمٍ وروح، ما قادَ وفقَ المسلمين الأوائلِ إلى تفعيل إرادةِ الإنسان المسلم وفق إرادةِ الله، تماهياً بل حلولاً.

وإذا كانت زاوية نظر الفلاسفة في موضوعةِ إرادةِ العقل البشري، والفهم والحرّية ما زالت تؤكد على لغزِ تلكَ المفاهيم، كما يرى تشومسكي، فإنّ محاولاتِ السّلطة كانت تحفزُ باتّجاهِ الانصياع بمعزلٍ عن توصلٍ كاملٍ لاستيعابِ المفهوم؛ فالإجراءُ كان ليؤجّل، إلى حين يجدُ الإنسانُ إجابة شافية عن أسئلتِهِ تجاه التّصوراتِ الفلسفيّة، وحينَ يحصلُ ذلكَ كانَ النّموذجُ المفهوميّ يُقدمُ ضمنَ استثناءات.

وفي حوار التأسيس، الذي أسوق هذهِ المقاربة عنهُ، بفي القرن الثامن في الولاياتِ المتّحدة قُدّم التّصوّر الأوّل للحرّيةِ الدّينيّة وفق استثناءات النّموذج!، فالأفارقة المسلمون الذين ولِدوا هناك، ولم يكن لهم من هويّةِ مواطنة غير تلكَ التي اكتسبوها ضمنَ حدود الهوية الوطنية الأمريكيّة، ولم يكن غير البروتستانتي ليحظى بالمميّزات العليا في العمل، والإسكان والإخاء الاجتماعي، وإجمالاً: في الحياةِ المدنية والسّياسية، وهنا يقفز السّؤال حول اندغام العرق بالدّين، مشكلاً هويّة مزدوجة، لكنّها وحدوية ضمن مفهوم عدم تقبّل المهاجرِ الجديد، لقد تُقُبّلَ التّعدّدُ في بداياتِ حوار التأسيس لخلق ثنائيّةٍ دينية (مسيحيّة-يهوديّة)، ولم يكن الإسلامُ مطروحاً كقطبٍ ثالثٍ حتى وصف العالم والنّاشط المسلم: اسماعيل راجي الفاروقي أمريكا بأنها بلدٌ تتحقق فيه سمات الدّيانات التّوحيديّة الثلاث. ثمّة فكرةٍ تقليديّةٍ دارجة، حولَ أخطاءِ الإسلام، حاولت سبيلبيرغ توثيقَها، وتوثيقَ تلكَ الرّغبةِ بالتّسامح من لدن التّنويريينَ، في المُثلِ الأمريكيّة؛ غير أنّهُ من غير الممكن الحديثُ عن المساوةَ الدّينيّة والسّياسيّة شموليّاً، ذلكَ أشبهُ بـ (يوتوبيا)، وإن كانتهجرةُ المسلمين إلى أمريكا في بداياتها انمازتبأعدادٍ قليلة نسبيّاً منهم، فقد تأخّر الاعتراف العام بهم كمواطنين،إبان كان الانتماء العرقي العربي يسبب مشكلة كذلك، ما عادَ إلى واجهةِ الأحداثِ اليوم.

ثمة تخمينات غير مؤكّدةٍ اليومَ حول عدد المسلمين الأمريكيين، بوصف إحصاء السّكان الأمريكي لا يستطيع سؤال الأمريكيين عن دينهم، وكانت تلكَ العلاماتُ الباهتةُ على التّعدد، والقشرةُ الهشّة التي ترتديها الحرّيةُ في البداياتِ مؤشّراً قليلَ الدّقة على ما سيتمخّضُ في مستقبل التعاملِ مع اختلافاتِ المهاجرين، وضمنَ قفزةٍ هائلةٍ في الزّمن منذُ المحاولاتِ الهيّابةِ دمجَ الأغيارِ في نسيج الدّيمقراطيّة الأمريكيّة، نجدُ أنَّ المسلمين بعد أحداث ١١ سبتمبر، يرفضونَ مساواةَ دينهم بالأعمال الإرهابيّة؛ فقد كانوا هناكَ بعد قرنين ويزيد يقفونَ في موقف الدّفاع عن الذّاتِ، ومحاولةِ إثباتِ استحقاقهم للتماهي مع المجتمع الذي ولدوا فيه، وأنّ وجودهم ناصع، لا يمكنُ تشويهُ زاوية االنّظر إليه، لمحض حادثٍ مغرض.

لقد سجّل مكتب التّحقيق الفيدرالي ٥٤٦ حالة من جرائم الكراهية المعادية للإسلام بعد ١١ سبتمبر، بزيادةٍ على ٣٣ عن السّنة السّابقة (باكاليان، ص ١٣٠)وهو صعودٌ هائل، وعليهِ منحت الحكومةُ، صلاحيات لم يسبق لها مثيلٌ في مراقبةِ المواطنين الأمريكيين، ونصب عينها: ردعُ الإرهابِ في الولايات المتّحدة والعالم.

ولقد تطوّرت حالة التّعصّب المعادية للإسلامِ بعد انتخابِ كيث إلسون الديموقراطيّ المسلم، واصطدمت المثلُ المدنية الأمريكيّة العليا مع مخاوف قديمةٍ تجاه المسلمين، ممّا جعل عدّةَ أسئلةٍ تطفو على السّطح، أهمّها: هل كانت أمريكا تعاني –طوال الوقت- رهاباً

داخلياً من الإسلام، تمظهر من خلال قرآن جيفرسون، الذي أعيدَ إلى الواجهةِ ومنحَ شهرةً غير مسبوقة في القرن العشرين، بعدَ طلبِ إلسون قرآنَ جيفرسون ليُقسِمَ عليه. دعا صحفيون منهم براغر إلى "عدم التسامح مع قسَمِ إليسون؛ لأنه –بنظرهِ- يقوّض الحضارة الأمريكية"[٣]، (تريسكوت، واشنطن بوست/٢٠٠٦) وقد هنّأهُ الإعلاميّ غلين بيك عضو الكونغرس الجديد، رافضاً اعتبار مواطنتهِ كاملة، واتهمه بالتّحالف مع خصومٍ للأمّةِ الأمريكيّةِ من الأجانب، ما يُحيلُ على ما وجّههُ بيك(مذيع CNN) إلى أول عضو كونغرس مسلم على الإطلاق: "يا سيدي، أثبت لي أنّكَ لا تعمل مع أعدائنا" (غوتشوك، ص ١٤٤)

وبينما كان ٤٦% من الجمهوريين يعتبرون أوباما مسلماً، فقد تعرّض ريك بيري حاكم تكساس إلى هجومٍ عنيفٍ كذلكَ بسبب صداقةٍ فاعلةٍ مع أحد المسلمين، وتمويل مشروع (تواريخ وثقافات إسلاميّة) (ويغل، واشنطن بوست ، ٢٠٠٢) ولا تزالُ المساواةُ الدّينيّة، التي هي وعدُ المؤسسين: جيفرسون، وماديسون، وليلاند وآخرين، فكرةً مثاليّة، على طريق الإنجاز الكلّي.

ويتأسّسُ هذا الكتابُ على قصّة حدثت قبلَ بيان الاستقلال في العام ١٧٦٥، إذ قامَ جيفرسون باقتناءِ القرآن الكريم، فشكّلَ مع الآباءِ المؤسسينَ ضمنَ حركةِ التّنوير، جسراً من التّسامحِ يعبرُ من خلالِهِ المسلمونَ إلى صيغةٍ تتقبّل وجودهم في المجتمع الأمريكيّ الجديد. لقد كانَ جيفرسون هو الأب الأبرز، وربّما غيرَ المسبوق في موضوع التّعدّدية، إنصافاً للأقلياتِ الدّينيّة، ومحاورةً للاختلافاتِ الجوهريّةِ في الفكرِ الإنسانيّ، ومن الجديرِ التّنويهُ على أنّهُ اتّهم على نحوٍ مغرضٍ باعتناقِهِ الإسلام، وُجِّه ذلكَ كتهمةٍ تستحقّ الدّفاع. لقد تطوّرت منذ بدايات القرن الثامن عشر طبيعة المقاومة للإسلام في الولايات المتّحدة، وقامت جماعات الكراهية، المناوئة للإسلام، وأحزاب سياسيّة أساسيّة وهامشيّة بالطّعن بمواطنةِ المسلمين الأمريكيين، وبمساواتهم المدنية والسياسية، وانتُقد المسلمون بسبب ما رأته بعضُ العناصر المحافظة، إخفاقاً في شجب الإرهاب، إضافة إلى أنّ قلّة المعرفة بالإسلام والشّرق الأوسط، جعل من المسلمين موضع شكٍّ من بلادهم نفسها.

ثانياً: في مخيال الأمم النّاشئة- الحقوق المدنية والآراء الدّينيّة

لقد كانت زاويةُ النّظرِ إلى المسلمين –طوال الوقتِ- افتراضيّة بحتة، كأنّها رؤية غيبيّة قادِمة من تصوراتِ المخيال لا الواقع؛ قائمة على تصوّرٍ وهميّ، تمخّضَ ذلكَ عن علاقةٍ مشوّشة، تطوّرت إلى التّحامل، فالإقصاءِ والاستلاب، فالعدائيّةِ لاحقا.

وتصنّفُ سيبليبيرغ معظمَ الأمريكينَ في تصوّرهم تجاهَ الإسلام، في دائرةٍ متجانسة: فهم إمّا جاهلونَ أو مضلّلونَ،أو خائفونَ من الإسلام، وهذا ما يصنعُ مخيالهم، ويقمعُ رغبتهم الذّاتيّة والجمعيّة بتفهّم اختلافِ تلكَ الإديولوجيا؛ ولكنَ علاقة أمريكا المبكرةِ مع الإسلامِ –ممثّلة بجيفرسون- صنعت من هذا الأخيرِ ملهماً منفتِحاً، ومن الإسلامِ رمزاً معقداً، لقد عاشت الطّوائفُ المسيحيّةُ في أوروبا تناحراً، وعنفاً هائلاً، وبوصفِ المسلمينَ سكّاناً مُحتملينَ لأوربا وأمريكا، جرى التأسيسُ لزاويةِ نظرٍ تجاههم، كأنّما بصددِ تشكيلِ حكومةِ توافقٍ دينيّ.

إنّ المخيالَ ينطلقُ من قاعدةِ زاويتي نظر:

أوّلاً أنّ المسلمين، لم يكونوا يتخيّلون الحصولَ على حقوقٍ متماثلةٍ مع نظرائهم، وأنَّ هؤلاءِ النّظراء - الذينَ لم يرفضوا استعبادَ المسلمين- كانوا يتخيّلونَ بدورِهم، وبغيرِ سوابق تُذكر، أنّهم متفرّدون بشكلٍ استثنائيّ، حتّى أنّ فكرةَ التّسامحِ والتّعدّديّة شكّلت –حتى زمنٍ بعيد- مخيالاً ،حسبُ، في الخطاباتِ الثّوريّة العالميّة/ خطاب جيفرسون نموذجاً. لقد كانَ يُنظرُ بشكلٍ موسّع إلى الإسلامِ بوصفِ يديه كلتاهما مُلطّخة بالدّم!، فولتير نموذجاً،

في مسرحيّةِ (التّعصّب) أو (النّبيّ محمّد)، وهنا يمكن الحديث عن **صيغةٍ تعويضيّة** قامَ بها جيفرسون، لإسقاطِ عقلنتهِ للاهوتِ المسيحي اتكاءً على مفهوم (التّوحيد) في الإسلام، بوصف (التّوحيد) بحسب جيفرسون فكرةً أكثر منطقيّة.

لقد طرحَ متناولو الإنجيل -وفق حرّية مطلقة- تساؤلاً حولَ صحةِ ما نقلهُ العهدُ الجديد، أمّا تجربة جيفرسون في التأمل لمخالفةِ الوحي المسيحيّ أسسَ الطّبيعة، فقد كوّنَ إزاءها رأياً شكوكيّاً قلبَ المسلماتِ والثوابت المسيحيّة، واضعاً يقينهُ بشأن (إنجيلٍ واحدٍ) على المحك.

ويرى جيفرسون أنّ التّوحيد هو عقيدةُ (المفكّرينَ) بالإجماع عبر كلّ الأمم/ أنّها العقيدةُ النّقيّة لإلهٍ غير معقد للمسيحيّة المبكّرة (سبيلبيرغ، ص ٣٢١ – ٣٢٠)وقد وُصفُ جيفرسون بأنّهُ خائن وتمَّ تدمير بيتهِ، ومكتبتهِ ومختبره في برمنغهام، بغير إثباتُ أصولِهِ الإيمانيّة، وكل هذا العداء متأتٍ من جعلهِ الإسلام هدفاً للثّناء، وانطلاقِهِ من دائرةِ التّوحيد، وصلابتهِ المفرطة في إحقاق المبادئ.

كانَ الاعتقادُ السّائدُ من ترجمةِ سيل للقرآن الكريم، ووصفِهِ محمّداً بأنّهُ (مشرّعُ العرب)، ينحى إلى استلهام القرآن الكريم بوصفِهِ أطروحة قانونٍ إسلاميٍّ، يُنظّمُ العلاقاتِ بينَ معتنقيه،ولم يكن جيفرسون مهتماً حسبُ بالإسلام والقرآن، بل أبعدَ من هذا إلى: لغاتِ الشّرق الأوسطِ ورحلاتِه وتاريخه، وثمّة ميلٌ لتفسير انحيازهِ للقرآن بصفتِهِ القانونيّةِ –كما فُهمت- بالرّجوعِ إلى كونِهِ محامياً، ما يُعتبرُ من زاويةِ نظرٍ إسلاميّةٍ تخفيضاً لفكرةِ النبيّ المبعوث، وانتهاكاً لشموليّة القرآن الكريم ومرونتِهِ الجديرةِ بالتّفكر، وتوسيع المنظور. لقد عمدَ جيفرسون إلى الخطابات المعادية للإسلام، ساعياً لإنهاء الإنغليكانيّة المكرّسةِ كدينٍ للدّولة.

وقد سُبقت ترجمةُ سيل، بترجمةِ كيتون في القرن الثاني عشر، ولم تغادر هذهِ الأخيرةُ أهدافها الاستراتيجيّة بعد فشل الحملاتِ الصّليبيّة، بوصفها مناورةً لتحويل المسلمين، مروِّجة لنفسها بتفوّق المنطق، ومناوَئةِ الإجبار، " وهكذا غالباً ما شوّهوا عمداً سماتِ القرآن الأساسيّة، بهدفٍ سياسي لوصفِ الإسلام بأنّهُ هرطقة، وأنَّ النبيّ مخادعٌ" (سبيلبيرغ، ص ١٣٦)

لاحقاً لذلكَ في ترجمةِ سيل، تمَّ ربط الإسلام بالكاثوليكيّة، على نحوٍ غير مفهومٍ إلّا من جهةِ معرفتنا بأنَّ الجهة التّبشيريّة القائمة على التّرجمة هي مجموعةٌ بروتستانتيّة أنغليكانيّة بريطانيّة، وعلى نحوٍّ غير مفهومٍ كذلكَ أصرّ سيل على (نزاهةِ) ترجمتِه، "أعيدت طباعة ترجمةِ سيل أربع مراتٍ في القرن الثامن عشر، وتُرجمت إلى الألمانيّة، والفرنسيّة، والرّوسيّة، والهولنديّة" (المرسفي، ص ٣٤٨) وقدّم المجلّد الأول من ترجمةِ سيل شرحاً خلال ٢٠٠ صفحة حول الإسلام: التّاريخ والممارسة الشّعائريّة، والفقه والسياسة الإسلاميّة، بطريقةٍ توخّت الدّقة والتّوسع، إلّا أن تبشيريّتهُ انطلقت لتدينَ فكرة الإجبار/ الإكراه، مدلّساً في ترجمته (لا إكراهَ في الدّين) إلى (ليمتنعَ أيّ عنفٍ في الدّين) (سيل/ عن ترجمتِهِ للقرآن، ص ١٧٦٤) والفروقُ اللغويّةُ ومن ثمَّ المعرفيّةُ والسّلوكيّةُ للكلمتين متباعدة، مجانباً إلى الحدّ الأقصى "أطروحة المنشقينَ المسيحيين، والمؤمنينَ العقلانيين، والتّوحيديّين، الذينَ عدوا الإسلامَ ديناً وفلسفةً" (المرسفي، ص ٢٤- ٣٥) وفق أساسٍ حتميّ.

وإذا كان جيفرسون قد تعرّضَ لهجومٍ لاذعٍ، ونقدٍ صارخ لمواقفِهِ من معتقداتٍ عدّة أهمّها الإسلام، فإن ما أوعز لهَ بتلكَ المعتقدات، هو بشكلٍ رئيسٍ اضطلاعُهُ على نسخةِ القرآن، وسيمرُّ الاستقراءُ هنا بأبرزِ الثّيماتُ التي بثّها سيل، أو حوّر اللغة لتنحازَ إليها

مفهوميّاً:
لقد وصفت الترجمةُ سمة تعدّد الزّوجاتِ مثلاً بالنّسبةِ للنبيّ بأنّها حالةٌ شائعة في الجزيرةِ العربيّة، حتّى بين يهود العهد القديم، وكانت مستحسنةً من قبل أساتذةِ الدّين، ويغالطُ فكرةَ انتشارِ الإسلامِ بالسّيف وحدهُ، ويعطفُ على استخدامِ الحملاتِ الصّليبيّةِ عبارة (الجهادِ المقدّس)، لقد تفهّم سيل أنّ عظمة القرآن تتأتّى من فكرةِ الوحدانيّة، وربط بين القرآن والكتابِ المقدّس معترفاً بوجودِ الأسفارِ المشكوكِ فيها في القرآن، ومنحازاً إلى التّرابطِ العظيم بين الأنبياءِ في الإسلامِ من آدم إلى المسيح، وأخيراً محمّد.

ويعرّج سيل على احترامِ المرأةِ، فالله –كما تجلّى لهُ- في الإسلامِ لا يميّز بين الجنسين، ويصف سيل بدقة أركانَ الإسلام، ويفصّل في المحرّماتِ، ويعرّج على المدارس الفقهيّةِ الإسلاميّة في ملخّصٍ من فصلين.

وأجدني مضطرةً هنا للرّبط بين ما تقدّم في ترجمةِ سيل، وبينَ ستوب، في أفكارِهِ غير التّقليديّة التي جعلت منهُ زنديقاً في عين الكنيسة: لقد نظرَ إلى الحربِ في الإسلام، وإلى تعدّد الزّوجاتِ في الإسلامِ بوصفهما سمتان تمَّ تشويههما، لقد مثل ستوب للملكِ ديفيد الذي عدّد الزّوجاتِ، ورأى من خلالِ الإسلامِ أنّ ذلكَ المبدأ يعالجُ الإباحيّة الرّاسخة، ويحلُّ مشكلة الشّرق والجنوب، حيثُ تتفوّق النّساءُ على الرّجالِ عدداً، وقد وضّح في واحدٍ من فصولِ كتابهِ عدالة الحروب المحمّديّة، وأشار إلى زيف انتشارِهِ بالسّيف، ومن خلالها نظر إلى محمّدٍ بوصفِهِ قائداً سياسيّاً عسكريّاًكانَ: "شخصاً استثنائيّاً، ذا فطنةٍ سريعةٍ، وحكمٍ ثاقبٍ، وشجاعةٍ غيرِ هيّابة، وكانَ مؤهّلاً في آنٍ لأعمالِ الحربِ، أو فنونِ السّلامِ والحكم المدنيّ" (ستوب، ص ١٢٤ - ١٤٢)

ما فعلهُ سيل من ترجمة، وما فعلهُ جيفرسون باقتنائِهِ تلكَ التّرجمة، وما فعلتهُ الأجيالُ القادمةُ من قراءةٍ وتدبّرٍ للقرآن، هو علامةٌ صحّيةٌ على محاولةِ استشرافِ المستقبلِ في العلاقةِ مع المسلمينَ من خلالِ تدبّر ماضيهم الذي ينجلي بكلّ تصوّراتِهِ من خلالِ (القرآن).

وبصفةٍ خاصّة: هل يمكنُ فهمُ ما قامَ بهِ جيفرسون لمنحِ المسلمين حقّ التّصويت، والتّسامح معهم، ومحاولةِ دفعهم لنيل حقوق متساوية مع المواطنين، هل يمكنُ فهمُهُ بوصفِهِ قراءةً محايدةً للآخر، سيما وأنّ جيفرسون لم يكن ليكترثَ للضغوطِ الواقعةِ عليه. كثيرون اتُّهموا، في إطارِ حملةِ التّشهير المعادي للإسلام، بأنّهم مسلمون، كانوا كذلكَ أم لم يكونوا، المفكّر جون لوكن، سيل مترجم (القرآن)، الذي اضطلعَ عليه، واقتناهُ لاحقاً جيفرسون / مبحثُ المقاربة.

لقد اتّهم سيل بأتهُ (نصفُ مسلم)، أمّا جيفرسون، فهي تهمةُ الإيمان: (الإيمانُ العقلانيّ) الذي أودى بهِ إلى التّوحيديّة.

وبصدد صياغة قوانين جديدة للكومنولث، تتعلّق بفصلِ الدّين عن الدّولة، شارفَ جيفرسون سوابقهُ في قراءةِ فولتير المتحاملِ على القرآن، وكذلكَ المقالاتِ والدّراساتِ السّياسيّة، سيما البريطانيّة منها في القرن الثّامن عشر، التي ترى في الإسلامِ كهنوتاً يفرضُ نفسهُ بالإجبار، وينافي العلم والاستقصاء."إنَّ الدّينَ، وأسلوبَ تأديتهِ، يمكن توجيهه، بواسطة المنطق، والإقناع حسب، وليسَ بالقوّةِ أو العنفِ؛ لذا فإنَّ جميع البشرِ مخوّلونَ بشكلٍ متساوٍ لممارسةِ الدّين بحرّيّة، وفقاً لما يمليهِ ضميرهم" (جيفرسون، ص ٥٢٦) وقد ظلَّ الفرقُ قائماً بينَ منحِ حريّةِ التّساوي بين المسيحيّين أنفسهم، وبينَ إعطاءِ الحريّةِ الدّينيّةِ الشّاملة، والتي تتضمّنُ من كلّ بدٍ المسلمين؛ لذا قُدّمت عرائضُ المشيخيين، وكانَ راسخاً في أعماقهم اضطهادُ البابا للبروتستانت، وتحت مفهوم "إلغاء الاستبدادِ الرّوحي" تطلّع جيفرسون إلى قراءة الفيلسوف الهولندي هيوم الذي أشار بأنّ القرآنَ (كتابٌ مقدّس)؛ وعليهِ فسيتعدّدُ أو يختلفُ مفهومَ المواطنة بين جيفرسون الذي رأى استثناءاتٍ عديدةً مستندةً

إلى الدّين، وبين فلاسفةٍ كلوك، إذ اقترح تسامحاً رسميّا بين اليهود والمسلمين بوصفهم (مواطنين) في المجتمع الأنغليكاني، ممّا ألهم بشكلٍ مباشرٍ جيفرسون من أجلِ إنشاء (الحقوق المدنيّة)؛ لأنَّ الدّولة ليستَ معنيّة من زاويةِ نظرهِ الحقوقيّةِ السّياسيّة بخلاصِ الفرد، بل هي دولة تعدّديّة دينيّة، يتساوى فيها الجميع في الحقوق، والامتيازات، والحصانةِ المدنية، بوصفهم مواطنينَ أحراراً، لقد انطلقَ جيفرسون إلى توسيع منظورهِ العام، من تاريخ أوروبيٍّ دمويّ، وقراءات فلسفيّةٍ مختلفةٍ إلى جانبِ فقهِ الواقع، حتى أعادَ صياغة فكرةِ لوك الإنسانيّة في قانونٍ إحيائيّ.

ثالثاً: نماذج التّسامح أو التّعصّب الدّيني:

" يأمرُ المسيحُ بتركِ الزّوانِ والحنطة ينموان معاً إلى الحصاد" (متّى١٣: ٣٠ ، ٣٨)

مُنحَ لقب البطولةِ لأشخاصَ كُثر، ساهموا في تغير خارطةِ زوايا النّظر للأغيار، كانَ على رأسهم سبيستيان فرانك، الذي أدهش بادّعائهِ "أنّ التركيّ والوثني، مثل الألمانيّ خُلِقَ على صورةِ الله، وكتب اللهُ المحايدُ قانونه في قلبه"، وقد شكّلت سيطرة الدّول على الممارساتِ الدّينيّة؛ بالنّسبةِ لجون سميث قلقاً، وذهبَ باتّجاهِ دعوةٍ ملحّةٍ لفصلِ الحكومةِ عن ما أسماها (أمور الضّمير)، وأقامَ هلويز دعوةً ملحّة في إنكلترا، وتحدّى الرّوابط البيوريتانيّة في الكنيسة .

أمّا النموذج الذي وصفت سبيلبيرغ كتابَهُ (الإيمان الدّموي) بأنّهُ "استطراديٌّ وفكريّ، لكنّهُ ممتلئٌ بالأفكارِ الفذّة" (سبيلبيرغ، ص ٩٨)فهو المحاولةُ الإصلاحيّة لروجر وليمز، (وكان يحملُ إشاراتٍ استراتيجيّة مبعثرة) بحسبِ قولِها من أجلِ التسامح، على الرّغم من اعتبارهِ دينَ المسلمين مزيّفاً ، وحكمِهِ على النّبيّ بالجحيم، بوصفِهِ مخادعاً ضلّلَ أتباعه، وقد رأى ماديسون إلى الأمرِ بصفتِهِ الرّياضيّة التبادليّةِ المحضة وفق سؤالٍ استنكاريّ:"من لا يرى أنَّ السّلطة نفسها التي يمكنها ترسيخ المسيحيّة، باستبعادِ جميع الأديان الأخرى، يمكنُها بالسّهولةِ نفسِها ترسيخُ أيّ طائفةٍ معيّنة من المسيحيين، باستبعادِ جميع الطّوائف الأخرى؟" (ماديسون، ص ٣١١)

لقد تنوّعت الدّعواتُ التي حاربت من أجلِ التسامح بينَ رديكاليينَ يرونَ بتفوّق المسيحيّة، وعدمِ التّشدّد في ضمّ الأرواح الضّالةِ من المسلمينَ واليهودِ والوثنيين وغيرهم إلى مملكةِ الرّب كوليمز، وكاستيليو وهلويز، وعلى العكس منهم كان يقفُ مينوكيو وفرانك. بينما حذّر كوتون في لهجةٍ شديدة من مخاطر تولّي (الزّنادقةِ) الحكم أو المشاركةِ فيه؛ لأنّهُ سيكونُ من الابتداعَ السّماح بالتدخّل السّياسي لشخصٍ خارج دائرةِ الوفاق الرّوحيّ مع مذهب الكومنولث البيوريتاني، وبهذا توزّعت زوايا النّظر دائماً باتجاهِ أنّ الخلاصَ قد يطولُ أرواحَ غيرِ (المؤمنين)، وبينَ التّحذير من إطلاق حرّيةِ الضّمائر في جميع البشر. ثمّة إشاراتٌ إلى أنَّ السّوابقَ التي قعّدَ لها وليمز لم تؤثر بشكلٍ كبير في توجّهاتِ جيفرسون، أو شخصياتٍ أخرى محورية في العصر الأمريكي الثوري؛ لكنّ تلكَ الأفكار، وجّهت لاحقاً جون لوك، في كتابِهِ (رسالة تتعلّق بالتسامح)، وسيكتب في منفاهُ عن الحقوق المدنية، ولعلّ هذهِ الأفكار ستتطوّر تاريخياً وتحدث فرقاً أساسيّاً من خلالِ تواصلِهِ مع العربيّةِ والإسلامِ والتّاريخ الإسلاميّ، بعد اكتشاف البروتستانتيين أنّ العربيّة هي أيضاً لغةٌ ساميّة مفيدة، وبعد منحِ الملكة إليزابيث ترخيصاً لشركةٍ تركيّة؛ للعمل في الإمبراطوريّة العثمانية، وتلكَ الأواصر التي أصبحت أكثر إلحاحاً بعدَ ظهورِ القراصنة الإفريقيين، مهدّدين الشّحن الإنكليزيّ عبر البحر المتوسّط والأطلسي.

إنّ ترجمة بوكوك لحيّ ابن يقظان، لا يمكن تجاهلها كنموذج أثر عميقاً في تشكيل تصوراتِ التّسامح الدّيني المستقبليّة، فذلكَ النّصّ الفلسفيّ لابن طفيلٍ، كانَ يشرحُ تلكَ القدرةَ الفطريّة الكافية لإتقان كلّ معرفةٍ، وللوصول – كذلكَ - إلى الله، مما ألهمَ المفكرينَ الأوروبيينَ (مكّي، ص ٢٠١)وعلى رأسهم لوك في فلسفتِهِ التّجريبيّة –كما أسلفت-، وأبعد من ذلكَ: ذهبتِ الترجمةُ لتُستنسخَ في روبنسون كروزو لدانيال ديفو. وتواترت الأطارحُ بعدَ لوك، ليأتي هنري ستوب، متحدّياً "دونَ مساعدةٍ من أحد ألف سنةٍ من الجدل المسيحيّ، العنيف ضدَّ الإسلام، مهاجماً (الأكاذيبَ الكبيرة) و(الأمانة القليلة) في التواريخ المسيحيّةِ عن الإسلام، ووصفَ الفتوحات الإسلاميّة للشرق الأوسط في القرن السّابع، بأنّها: (تلكَ الثورة المذهل)، ورغم كلّ شيءٍ أصرَّ على أنّ محمّداً هو كاتبُ (القرآن)"(سبيلبيرغ، ص ١١١)

في شباط ١٧٧٠ بعد خمس سنواتٍ من شراء جيفرسون نسخة من القرآن ، سجّل خسارتَهُ لمنزلِ أمّهِ بالحريق، الذي أحرق كلّ شيءٍ بما فيها القرآن الكريم؛ لكنّهُ لم يكن الوحيد الذي يمتلكُ نسخة، فقد امتلكَ د.جيمس برايدن واحدةً في جزئين، وقد أعادَ جيفرسون اقتناء القرآن مجدّداً، ويعوّلُ الباحثونَ على أنَّ اقتناءَهُ القرآن مرّتين، ينطوي، على اهتمامٍ فوقَ العادة، ويعكسُ رغبةً فريدةً في فهمِ الإسلام.

ومنذُ ستينات القرن الثّامن عشر، ١٧٧٦، تضمّن مثل جيفرسون الأعلى، حول المساواة الوطنية والدّينيّة والسياسيّة، المسلمين، بالإضافةِ إلى اليهودِ، وجميعِ الآخرينَ من كلِّ طائفة" (سبيلبيرغ، ص ١٨٢) ضمنمشروع قانونه، لترسيخ الحرّية الدّينيّة ١٧٧٧وبقيت لدينا إشكاليّة العبيدِ المسلمين التي لم تعالج مدنيّاً، ولم يُلتَفت إليها في تنظيراتِ الفلاسفةِ والمفكّرين، والتي شكّلت تناقضاً حقوقيّاً.

ولاحقاً تحققت زاوية النّظر إلى المسألةِ من منظورٍ آخر، حين ارتبط الدّين من لدن الأفارقةِ بالقرصنة، وصار السؤال حول فديةِ الأسرى الأمريكيين محتملاً أو غائباً، وقد مثّلت القرصنةُ سلطةً عشوائيّة من قبل الأفارقة، لم تفهم بمعزلٍ عن دينهم!، وعلى الرّغم من أنّ المغربَ كانت أوّل دولة تعترفُ بالاستقلال الأمريكي، إلّا أنّ القراصنة المغاربة، كانوا قد استولوا في العام ١٧٨٤ على السفينةِ التّجارية الأمريكية (بيتسي) كان ذلك بأوامر من السّلطان محمّد بن عبد الله، وكان ذلكَ لسبب يتعلّق بتجاهل الولايات المتّحدة تلكَ المبادرة بالاعتراف أوّل الأمر، وكانَ جيفرسون على وشكِ توقيع معاهدةِ سلامٍ مع المغرب، لولا أنّهُ عبّر عن هواجسَ من دفع الجزية؛ تطوّرت سياسة القراصنةِ موسّعةً دائرةَ نفوذها، ممّا حدا بجون آدمز إلى وصفِ عملية النّهب في الشّمال الإفريقي بـ "المشكلة السّياسيّة الخارجيّة الأكثر إلحاحاً، التي تواجهُ الأمّة الجديدة" (آدمز، ص ١٢٣)تطوّر الأمر باتّجاه رغبةٍ من جيفرسون في ردٍّ عسكريّ، وفكرةِ إنشاء قوّةٍ بحريّةٍ، لمواصلةِ تجارةِ أمريكا، كان تحليلُ الرّاهن ذاهباً باتّجاهِ أن يكونَ ما يجري مناورةً ماليةً انتهازيّة بسطها جيفرسون، أو أن تكونَ نواةً وأسّاً لصراعٍ دينيٍّ بحسبِ رؤيةِ آدمز، لكنّ قرآن جيفرسون كان في حوزتِهِ، قبل تحوّل القرصنةِ إلى قضيّةٍ دبلوماسيّة بأحدَ عشرَ عاماً.

لقد أقصت المواقعُ المدنيّةُ والعسكريّةُ وجودُ المسلم/ الكافر فيها، لئلّا يبدأ بشكلٍ فرديٍّ بالتّشويش، بما يملكهُ من أفكارِ الزّندقةِ، على مجتمعٍ بأكمله؛ كانت هذهِ النّظرةُ سائدةً حتّى ١٧٨٨ حينَ قدّم مندوبونَ اتّحاديّونَ فكرةَ مناقشة إقرار كارولاينا الشّمالية: في إمكانيّة أن يصبحَ يهوديّ أو كاثوليكيّ أو مسلمٌ رئيساً للولاياتِ المتحدة.

كان موظّفو الولاية، يخضعونَ لاختباراتٍ دينيّة، وكانت الفكرةِ الضّاغطةِ القائلةِ - وإن بلا جدوى أحياناً- إنّ للجميع حقاً طبيعيّاً لعبادةِ الله وفق فهمهم، تتراجعُ وتتقدّم وتراوحُ

مكانَها، وكان الإسلامُ يقفزُ ضمنَ النّقاشات والإقراراتِ الدّستوريّة، ليذكّر بانتهاكات القراصنة في الشّمال الإفريقي، وبالاستبدادِ العثماني.

لم يكن الإلحادُ يشكّلُ ظاهرةً في تلكَ الحقبة، وإن كانت مراجعاتُ جيفرسون الملهمة للقرآن قد حفزتهُ على الاعترافِ بعظمتِهِ وتفوّقِهِ، فإنّهُ لم يكن منحازاً إلى الخوارق، ولا مؤمناً بالمعجزات، ما حدا أفراداً من المؤسسينَ في أمريكا للتّحذير من عقلنةِ الإيمان، ومن الإيمان العاقل، وعدّوه أخطرَ من ظاهرةِ الإلحادِ المنحسرة، بينا كانَ إله جيفرسون متعالياً في المنطق، قصيّاً عن الكرامات الصّغيرة.

وضعت هذهِ المناوراتِ في مجملها، لمسةً من المرونةِ في الجدل، حفزهُ المنطق الذي بدورهِ شجّع على تفكيرٍ معتدلٍ وإن كانَ شاقاً عليه أن يتقبلَ اختلاف الآخر: على أنّهُ ليسَ ضرورةً لكونِهِ شريراً، مع مخاوف باستبعاد الكفاءاتِ لاختلافهم في العقيدة، ممّا سيصبحُ رمزاً للاضطهادِ الدّينيّ

رابعاً: فتنةُ المتعدِّد

حاولت سبيلبيرغ أن تطرحَ تاريخيّاً من خلالِ هذهِ القراءة فكرة فرض الدّين من قسطنطين الأوّل الذي نبذ الوثنيين والهراطقة، إلى بابا الفتيكان الذي أقصى المناوئين البروتستانت، إلى الإمبراطور العثماني الذي نزع الحصانة عن كلّ مشكّكٍ بمحمّد، هذهِ النّماذجُ كلّها تطرحُ إملاءات السّياسة في الدّين، بوصف الأخير كهنوتَ الحكم، وبالتّالي: الموجّهَ لحياةِ النّاس الفرديّة والعامّة، شخصيّاً إنسانيّاً، ومجتمعيّاً شموليّاً.

شُنّت حملاتٌ روحيّةٌ تبشريّةٌ كثيرة، تعلّم القائمونَ عليها من خلالِها فن المعارضة، قام ليلاند في فرجينيا نموذجاً بالتّحوّل إلى المعمدانيّة، ومحاولةِ تخليص النّفوس على مدار خمسة عشر عاماً، وأرادَ هذا الكتابُ تكريسَ الخوفِ من الفصل الضّار بينَ دينٍ وآخر، وافتعالَ المفاضلة، فالمعتقدات الرّوحيّة تتكاثرُ بالفضائل، وفي حين أنَّ النّاس يموتون من أجل تحقيق التّماثل الدّيني؛ فإنَّ اللحظةَ الدّمويّة لا تتقدّم خطوةً إلى الأمام.

هل يمكن القول إنّ وجود كتابٍ مقدّسٍ للمسلمين هو (القرآن الكريم) في مكتبةِ جيفرسون دالٌ على فهمٍ عميقٍ للإسلام، ساهمَ في إرساء جذور التّعدّدية الدّينية المحتملة. وهل كان ترتيب القرآن رابعَ كتابٍ دينيّ، في سياق نصوصٍ مقدّسةٍ لأديانَ عالميّة، تابعاً إمّا لأسبابٍ تمرحليّةٍ زمنيةٍ تاريخيّة، أم لأخرى تحليليّة، تتعلّق بالمفاهيم والتّصورات؟ إنّ مكتبة أمريكا الوطنيّة، ما تعرفُ حاليًّ بمكتبة الكونجرس، تضمّ القرآن الكريم، قرآن جيفرسون، جنباً إلى جنبٍ مع ما اقتناهُ من باعةِ الكتب في باريس ولندن، ما مجموعُه ٦.٧٠٠ مجلّدٍ ثمين، رتّبت بوحي من تصنيف الفيلسوفِ فرنسيس بيكون إلى أقسامٍ ثلاثة هي: الذّاكرة، والفلسفة، والفنون الجميلة.

تطلّعت هذهِ القراءةُ لكتاب دينيس . أ. سبيلبيرغ إلى رصدِ العلاقةِ مع الإسلام من زوايا نظرٍ متعدّدة، كان الإسلامُ فيها جميعاً، هو ذلكَ القالب الإيديولوجيّ، الذي تؤخذُ سماتُهُ، وثيماتُهُ دفعةً واحدة، لم يكن الإسلامُ فرديّاً في أيٍّ من زوايا النّظر، ولم تكن الفروقُ والتّمايزاتُ بين معتنقيهِ لتؤخذ بعين التّحليل والنّظر، كانَ دائماً شكلاً جماعيّاً للوجودِ، رغمَ أنَّ أفكارهُ وتصوّراتِهِ كانت تنمازُ بوصفها متمرحلةً وموزّعة، داخلَ وحدتِهِ العضويّةِ المتينةِ، وبنيانِهِ المتماسِك.

إنّ كلّ فردٍ داخلَ دينه يتبدّى مؤمناً بإلهٍ أسمى، لعلَّ الفكرةَ السّياسية، ومناوراتِ الحكم لم تنتبه وهي تصنّفُ النّاس وفقَ مرجعياتهم، بأنّها تخفّض من قيمةِ الضّمير الضّروري لأمانةِ العمل، وتخفّض من الحافزِ الجوهريّ للمواصلةِ، وأداءِ الأفضل، وربما

يجعلُ (الإنسانَ) من داخلِهِ ينحسرُ إلى الشّيء، ويتمكنُ كأنّهُ مسنّنٌ في آلةِ الحضارة، كلّ ذلك كانَ يحصلُ وهي / السّياسة أعني: تحاول توحيدَ النّاس على دين القائمينَ بأمرها، منتزعة إياهم من حاضنتهمُ الحافزة، ومجنّبة نفسها تفهّم الاختلافِ الذي سيؤازرها في مشروعها التّنويريّ نحو الحريّةِ والحكمةِ والتقدّم النّوعيّ.

لو لم يفعل القرآنُ شيئاً غير أن أدار حواراً بينَ الآباءِ المؤسسينَ أثناءَ وضع الدّستور، وخلقَ حالة صارخة من الانحياز والقدح، الاستلهام والرّفض، لكان هذا كافياً لامتحان النّظرةُ العدائيّة العامّة للإسلام، والتي كانت تناقضُ على نحوٍ طفيفٍ تلكَ المعرفة المسبّقة لجانبٍ مبهرٍ وإن كان غامضاً لأسرار ذلكَ الدّين وقدرتِهِ على التّوسّع والامتداد.

تلفتُ سبيلبيرغ النّظرَ في مقدّمتها إلى أنّ هذهالصفحات من كتابِ جيفرسون والقرآن، قد مثّلت " دليلاً تاريخياً مقدساً، ليس على حقيقة الإسلام، بل على قدرة بعض أوائل الأميركيين وتوقهم إلى معرفة ذلك الدين. وبما أنني أستاذة في التاريخ الإسلامي– تقول سبيلبيرغ- فقد أردت معرفة ما يعلم الأمريكيون القدماء عن الإسلام وكيف عرفوا الدين وتاريخه. ولدهشتي، وجدت أن كثراً من الأميركيين في عصر التأسيس، على رغم تراث التضليل العنيد من أوروبا، رفضوا الاستسلام للمخاوف المعاصرة التي تروج لاضطهاد المسلمين. وفضلوا أن يكونوا ورثة سلالة أقل شهرة، لكنها مهمة للتسامح الأوروبي نحو المسلمين، سلالة كان تأثيرها مغفلاً حتى ذلك الوقت في التاريخ الأميركي المبكر"(سبيلبيرغ، ص ١٦) إنَّ كلَّ ما ذهبت إليهِ سبيلبيرغ، وما هو قارٌّ في التّاريخ لا يبتعدُ عن كونِهِ نقطة انفصالٍ واتّصالٍ بينَ ثنائيّتين: ما كانَ معلوماً ومجهوراً بهِ حول الإسلامِ عن طريق كتابهِ، وما كانَ سرّيّاً سرّيّة مقصودةً، يستوجبُ صاحبّها الدّفاعَ عن نفسِهِ ضدَّ تهمةٍ هائلةٍ لو أفصحَ عنها!

كذلكَ لا يكونُ الحوارُ بغيرِ ندّين، ولعلّهُ لا يكونُ بغيرِ متكافئين، إنّ وجودَ الآخرِ في الإسلامِ ندّاً مكافئاً، هو النّقطةُ الأصيلةُ فيهِ والأكثرُ إدهاشاً، إذ هو لا يرى فيهِ غيرَ مسلمٍ على اعتبارِ ما كان، أو مسلماً على اعتبارِ ما سيكون، في مغايرةٍ منهجِهِ للفطرةِ البدئيّةِ السّويّة، إنّهُ يراهُ محاوراً للتّرقي أو للعودة: عقلاً لعقلٍ ورأساً لرأس. لقد صدحَ القرآنُ منذ ألفٍ وخمسمائةِ عامٍ بالتّحدّي، وكانَ الصّوتُ الجهوري للإتيانِ بمثلِهِ أو الدّخولِ فيه، هو صوتُ السّلطةِ الإلهيّة، وجاءت السّلطةُ السّياسيّة في نموذج جيفرسون بصوتٍ حاولت ما استطاعت أن يكونَ مسموعاً؛ لتقول إنّ الله للجميع، وإنّ الدّولة مكانٌ للمؤنسنينَ من البشر بما في ذلكَ المسلمين.

Abstract

Staging the text and the doctrine of tolerance
The book "Jefferson and the Koran, Islam and Founding Fathers" as a model
By Eman Mohamed

In this linguistic and cultural historical inquiry, one of the oldest models was to undermine the notion of heterodoxy, which expanded to accommodate the other, Represented by a linguistic motive to investigate the culture of this tongue. Through a translated copy of the Qur'an, Jefferson draws his free tastes, his lush questions about Islam, and the conceptual system he reveals through action, those who practice their perceptions, within behavioral mechanisms. I tried by relying on a linguistic cultural perspective in the Qur'an to look at the seeds of progressive global culture, an analyst of the roots and structures of diversity and acceptance of difference. This was not an extrapolation of past transformations but a construction of history from a future point of view, In an attempt to impose the policy of integration and identification of Muslims and the Koran, in a comprehensive knowledge society, is the American society, but the universality of the Koran placed on the test of inquiry, and the question of flexibility and depth, and fought the Muslim crisis of the self, Presented by Dennis Spielberg, by representing the experience of Thomas Jefferson, one of the founding fathers of America, in an attempt to reconnect man and the world, through the Holy Quran.

The story of religious freedom presented by Thomas Jefferson and the Qur'an: Islam and the Founding Fathers is a story of a great stream of consciousness, whose questions come to mind, through several approaches in the book, and more questions in fact If the future is not the master of salvation, in answering the foregoing, there is nothing less than to enter the examination of history and the memory of the community. Spielberg, like a historical introduction, digs into a confident image like a photograph and talks about the imagined ghost of the emerging Muslim nation in America. The solution of complex problems was manifested through linguistic communication and the export of this culture to its rules and disciplines through a conceptual context manifested through the text : The Holy Quran Frame and object.

الهوامش

١توماس جفرسون: Thomas Jefferson (١٧٤٣ - ١٨٢٦)، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، والكاتب الرئيسي لإعلان الاستقلال (١٧٧٦) وثالث رئيس للولايات المتحدة(١٨٠٩–١٨٠١) كان جفرسون أول وزير خارجية للولايات المتحدة (١٧٩٣–١٧٩٠)في عهد الرئيس جورج واشنطن، أسَّسَ هو وصديقه المقرب، جيمس ماديسون، معارضة لفدرالية ألكسندر هاميلتون، الحزب الجمهوري الديمقراطي، استقال جيفرسون لاحقاً من مجلس وزراء واشنطن، وانتخب نائباً للرئيس عام ١٧٩٦، عارض جفرسون آدمز وكتب بالإشتراك مع ماديسون قرارات كنتاكي وفرجينيا، والتي كانت محاولة لإبطال قوانين الهجرة والتمرد.

أنتخب رئيساً فيما يُعرَفُ بثورة ١٨٠٠، وأشرف على شراء أراضي لويزيانا الشاسعة من فرنسا (١٨٠٣)، وأرسل حملة لويس وكلارك (١٨٠٦–١٨٠٤)لاستكشاف الغرب الجديد. يعتبر جفرسون المهندس للتوسعة الأمريكية؛ حيث تضاعفت مساحة الولايات المتحدة مرتين في عهده. أما فترته الرئاسية الثانية فقدكانت حافلة بالعديد من القضايا والمشاكل الداخلية، مثل المحاكمة الفاشلة لنائب الرئيس السابق آرون بر بتهمة الخيانة. وتصاعدت حدة المشاكل مع بريطانيا والتي كانت تتحدى الحياد الأمريكي وتهدد الشحن البحري، حاولَ اختبار الحرب الإقتصادية بقوانين الشحن التي أصدرها والتي أضرت بالتجارة الأمريكية. عام ١٨٠٣، بدأ الرئيس جفرسون عملية نقل قبائل الهنود الحمر(السكان الأصليين للقارة الامريكية) وإعادة توطينهم في أراضي لويزياناغرب نهر المسيسيبي، بقصد توفير أراضي جديدة للمستوطنين الجدد. عام ١٨٠٧ صاغ ووقع مشروع قانون يحظر جلب العبيد إلى الولايات المتحدة.

كان متحدثاً باسم الديمقراطية، نادى بمبادئ الجمهورية وحقوق الإنسان، وكان له تأثير عالميفي ذلك. في مطلع الثورة الأمريكية، كان عضواً في المؤتمر القاري، ممثلاً عن فرجينيا، وفي وقت الحرب كان حاكم فرجينيا .(١٧٨١–١٧٧٩)قبل وقت قصير من نهاية الحرب، من منتصف ١٧٨٤ كان جفرسون دبلوماسياً، يخدم في باريس .

في مايو ١٧٨٥، أصبح سفير الولايات المتحدة في فرنسا.

وكرائد في عصر التنوير، كان جفرسون متعدد الثقافات ويتحدث خمس لغات وكان شديد الإهتمام بالعلوم، والعمارة، والأديان والفلسفة وكان عضواً ناشطاًفي الجمعية الفلسفية الأمريكية، ولاحقاً رئيساً لها.

٢دينيس أ. سبيلبرغ، مواليد ١٩٥٨، هي باحثةٌ أمريكية في التاريخ الإسلامي،وأستاذٌ مشارك في التاريخ ودراسات الشرق الأوسط ، تحملُشهادة دكتوراه (١٩٨٩) من جامعة كولومبيا، وهي مؤلفة كتاب "السياسة والنوع الاجتماعي والماضي الإسلامي: تراثعائشة بنت أبي بكر".

قائمة المصادر والمراجع:

أوّلاً: المصادر

القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع

١. آدمز، جون،رسائل آدمز- جيفرسون: المراسلة الكاملة، (إعداد ليستر ج. كابون، جزءان، ٢١ شباط ١٧٨٦)كارولاينا الشّماليّة، تشابل هيل: منشورات جامعة كارولاينا الشمالية، ١٩٥٩.
٢. باكاليان، ثورب، وبوزورغمير، جون، رد فعل، ج: ١١/٩، نيويورك، المكتبة الحديثة، ١٩٩٨
٣. جيفرسون، توماس، أوراق توماس جيفرسون، المجلد ١، نيويورك: منشورات جامعة أكسفورد، ٢٠١٢.
٤. سبيلبيرغ. أ،دينيس ، جيفرسون والقرآن، الأسلام والآباء المؤسّسون ، ترجمة: فؤاد عبد المطلب، الرّباط، المغرب، منشورات مؤسّسة مؤمنون بلا حدود، ، ٢٠١٥ .
٥. ستوب، هنري، المحمّديّة (١٧٥٠-١٧٥٢)،القسم ٢، الملف ٢٠٢ فرجينيا، منشورات ميكروفيلم، مكتبة جامعة فرجينيا، ١٩٦٧.
٦. سيل، جورج، ترجمة القرآن ، (ما يدعوه سيل: قرآنَ محمّد)، مترجم إلى الإنجليزيّة من العربيّة الأصليّة، أضيف إلى حوار تمهيدي، جزءان (لندن:هوز، ل. ، وجيفرسون، كلارك. ر" إلى القارئ" ١:٨ ، لندن، مكتبة بودلي، ١٧٦٤.
٧. ماديسون، جيمس، سجل تذكاري، (قراءات مختارة حول الحريّة الدّينية وعلاقات الكنيسة والدولة في التأسيس الأمريكي)، إعداد دانيال ل . درايسباخ ومارك ديفيد هول،إنديانابوليس، صندوق تمويل الحرية،

٢٠٠٩.
٨. المرسفي،زياد، قرآن التنوير: سياسة التّرجمة وبناءِ الإسلام، المجلّد ٥، بوبزين (ترجمات القرآن)، أكسفورد: مطبعة ونوورلد، ٢٠٠٩.
٩. مكي،الطاهر أحمد ، أصداء عربية وإسلامية في الفكر الأوربي الوسيط،القاهرة، دار الهاني للطباعة والنشر، ٢٠٠٤.

ثالثاً: المقالات في الدّوريّات:

١. تريسكوت، جاكلين، إد كوتش يدعو إلى إبعادِ (المتعصّب) على خشبةِ المحرقة،واشنطن بوست،ع: ٧، ١٤ كانون الأول ٢٠٠٦.
٢. غوتشوك،وليم، وغرينبرغ، بيدن، رهاب الإسلام،منشورات جامعة أكسفورد، ع: ١٦، ٢٠٠٨، ص ١٤٤، عن برنامج قضايا إعلاميّة لأمريكا، ١٥ تشرين الثاني ٢٠٠٦.
٣. ويغل، ديفيد،بيري يتفادى رصاصة الشريعة،واشنطن بوست، ع: ٤، ١٩ آب٢٠٠٧.